رؤية منهجية لكتابة التاريخ العسكري

الأستاذ: الغالي غربي

لا يمكن إرساء دعائم البحث العلمي في مجال الدراسات التاريخية الأكاديمية، ما دامت هذه الدراسات متمسكة بالأساليب والمناهج الكلاسيكية في صياغة وبناء الحدث التاريخي، فالمتفحص للدراسات التاريخية المتعلقة بالتاريخ الوطني يجد أن الطابع السردي للأحداث والتركيز على التاريخ السياسي هو السمة البارزة لدى أصحابها تطرقهم لكتابة هذا التاريخ، مما يطمس الكثير من الحوادث الخفية والمهمة في تحديد معالم حركية المجتمع الجزائري وطبيعته .

-أهمية التاريخ العسكري :

وإذا عدنا إلى الوراء قليلا، نجد أن المدارس التاريخية الأوربية، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، قد تفطنت إلى هذا الذي كانت تنتهجه المدارس التقليدية لكتابة الأحداث التاريخية مما مكن لظهور علم المناهج، وكانت العلوم الاجتماعية والإنسانية ومن بينها علم التاريخ ميدانا له. وشهد لم التاريخ قفزة نوعية من خلال ترسيخ منهجية علمية جديدة تعتمد في تحليلها واستقرائها للحدث التاريخي على النظرة الشمولية للظروف والمعطيات المختلفة، التي تحيط بجوانب الحادثة التاريخية، ولم يتوقف التطور عند هذا الأمر، بل تعداه إلى مجالات وفروع جديدة ألحقت بالدراسات التاريخية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، تاريخ الأفكار، و التاريخ العسكري.

وأضحى مجال التاريخ العسكري وتفرعاته، من المجالات الأساسية التي بدأت توليها الجامعات ومراكز البحث العلمي الأوروبية العناية القصوى في برامجها الدراسية ومشاريع بحوثها. وبدأت الأبحاث والدراسات التاريخية ذات الطابع العسكري، تحتل الريادة في استراتيجيات السياسات الثقافية العالمية، مما مهد لظهور مؤسسات علمية ضخمة، متخصصة فقط في هذا النوع من الدراسات، وفي هذا السياق تأتي مبادرة المتحف المركزي للجيش ومن ورائه وزارة الدفاع الوطني التي تستحق منا كل التشجيع لأنها بداية المشوار ولمسارية الركب الحضاري العالمي في مجال البحث العلمي.

-إشكالية كتابة التاريخ العسكري:

إن الدارس لما كتب ونشر من أبحاث ومقالات وكتب ودراسات عن المقاومة الوطنية للاحتلال الفرنسي في الجنوب الجزائري من بداية منتصف القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين، يلاحظ، أن ما وصلنا لحد الآن، ما هو إلا معلومات سطحية وشحيحة، عالجها أصحابها –أغلبهم فرنسيون – في سياق السياسة الفرنسية ومن خلال مشاكل ومصاعب فرنسا الاستعماري في الجزائر، ومن منظور فرنسي بحت. فهي إذن كتابات تؤرخ للجنب الفرنسي أكثر من تأريخها للجانب الجزائري. ورغم أهمية الجانب العسكري في المقاومة الوطنية، إلا أن الطرف الفرنسي تحاشى عن قصد التعمق في إبراز معالمه وصورة وخصوصياته لدى الطرف

الجزائري، بينما نجده أثناء تطرقه للطرف الفرنسي، يطنب في وصف المعارك وشجاعة الفرنسيين وقوة شكيمتهم وإصرارهم، وأعدادهم وعدتهم وخططهم واستراتيجياتهم وتقنياتهم، وكل ذلك في رسومات وخرائط وإحصائيات وأرقام. أما خصوصيات الطرف الجزائري، فلا نجد لها إلا بعض الإشارات و التلميحات موزعة هنا وهناك في ما تركه لنا الفرنسيون من أدبيان، و هكذا فنحن أمام عدة إشكاليات ودون الإجابة عنها –لا يمكن أن نضع الأسس العلمية التاريخ عسكري بحت للتاريخ الوطني عام والمقاومة الوطنية بصفة خاصة. ويمكن إجمال هذه الإشكاليات في التساؤلات التالية:

-هل كان لزعماء المقاومة الوطنية، إستراتيجية حربية انتهجوها في حروبهم مع قوات الاحتلال الفرنسي ؟ وهل كان استخدام هذه الإستراتيجية على نطاق محدود من ناحية المكان و الزمان أم كانت سمة عامة عبر المسار التاريخي للمقاومة ؟هل تم استغلال المعطيات المناخية والجغرافية والفضاءات الطبيعية في هذه الإستراتيجية ؟

- ما طبيعة الخطط العسكرية المطبقة، والتي مكنتهم من إلحاق الهزيمة بالجيوش الفرنسية في عدة مواقع ومعارك، رغم الفارق الصارخ في موازين القوى بين جيش يعتمد في تعداده على المتطوعين وبأسلحة تقليدية وفي بعض الأحيان بدائية ،وجيوش

مدربة على القتال في مختلف الظروف ومزودة في أغلب الأحيان بأسلحة متـطورة فتاكة ؟

-لماذا اعتمدت المقاومة في الجنوب الجزائري على الخطة العسكرية التي تركز على تجنب المواجهة المباشرة و الشاملة مع القوات الاحتلال، واختارت اعتماد أسلوب الكر و الفر، وحرب الاستنزاف، التي تعتمد على إرهاق العدو المتواصل من خلال الإكثار من المناوشات، ومهاجمة أجنحة الفرق العسكرية الفرنسية، و الانخفاض عليها من الخلف، والتحرك السريع لقوات المقاومة من خلال تقسيم هذه القوات إلى سرايا صغيرة العدد ؟ على هذه الأساليب في القتل راجعة إلى متطلبات المرحلة وظروفها التي كانت عليها القوى الوطنية، من قلة الإمكانات المادية والبشرية في الجانب الجزائري، أم إلى دراية وإطلاع بظروف المعـركة و المـكان ؟

-ما هي مصادر تموين المقاومة بالسلاح، هل كان هذا لسلاح ينتج محليا أم يتم استيراده أو تهريبه من خارج الحدود ؟ ما هي أنواع وأصناف الأسلحة المستخدمة في المعارك ؟

هذه مجموعة من التساؤلات، و التي إن استطعنا إيجاد الإجابة عليها، نسد الكثير من الثغرات والفجوات التي تصادف من يريد أن يتصدى ويؤرخ للتاريخ العسكري للمقاومة الوطنية في الجنوب الجزائري إبان فترة الاحتلال الفرنسي. والإجابة عن هذه التساؤلات

ليس بالأمر الهين أو لسهل، باعتبار أن الأدوات والحيثيات والمعطيات والمعلومات التاريخية التي تبني عليها ليست كلها في متناول الباحثين، فهي متناثرة وموزعة في العدد من المصادر والمراجع والدوريات ودور الأرشيف المحلية والأجنبية، ومخزنة في الذاكرة الشعبية. وعملية الإلمام واستقراء هذا الكم الهائل، ليس في مقدور الباحث وحده، وذلك لما تتطلبه العملية من إمكانات مادية ومعنوية معتبرة، عجزت مؤسساتنا العلمية على توفير الحد الأدنى منها.

- مصادر التاريخ العسكري:

1- المصادر الأجنبية: وفي مقدمتها الكتابات الفرنسية وتنقسم إلى قسمين. **القسم الأول** يضم كتابات تاريخية أو ذات طابع تاريخي، في شكل تقارير متنوعة لجواسيس ورحالة أوربيين أرسلوا لدراسة المنطقة، ومذكرات القادة العسكريين وعروض حال يومية وشهرية وسنوية كانت تصدرها الجهات العسكرية الفرنسية عن أوضاع الجنوب الاقتصادية والسياسية وتطورات الأحداث العسكرية والحربية بما فيها سير المعارك.

وعلى سبيل المثال نأخذ ما كتبه الجنرال Meynier في المجلة الإفريقية تحت عنوان: La guerre sainte des Snoussya dans l'Afrique française 1915-1918

وما كتبه /Trumelet.C .A 1930.PP.227-275PP.323-357

أو التقرير الهام الذي كتبه Les français dans le désert Paris 1885 المعنون بـ: Deux Episodes de la guerre au Maréchal Des Logis Lapierre

Sahara في جلة :.B.C.A.F.Année 1920.Supl. PP62-91 فقد نرك لنا مثلا هذا الأخير، تفاصيل جد قيمة، عن مجريات معركة مدينة جانت سنة 1911 ومراحلها، من خلال تقرير رفعه للقيادة العامة للجيش الفرنسي بعد إطلاق سراحه. وما تضمنه هذا التقرير، مجموعة من الصور التاريخية الفريدة من نوعها للتحصينات العسكرية للمدنية مرفقا بخريطة توضيحية لمدينة جانت وضواحيها. ويمكن أن نضيف إصدارات ومنشورات الحكومة العامة الفرنسية في الجزائر التي كانت تصدر في شكل تقارير دورية وسنوية عن تطورات الأحداث في الصحراء الجزائرية. وعلينا أن نشير أيضا، إلى أهمية بعض الصحف الفرنسية التي كانت تصدر في تلك الفترة و التي اهتمت بأوضاع المنطقة وتطور الأحداث فيها. وتكمن أهميتها في غناها بالأخبار والتحاليل والبيانات والتقارير والمقالات العسكرية ومن أشهرها .Afrique française

أما **القسم الثاني**، فيشمل الأرشيف الفرنسي ورغم أهميته العلمية وغزارة مادته، إلا أن الباحث قد يجد صعوبة ومشقة في الوصول إليه، ومن ثمة تفحصه بسبب عدة عوامل وحواجز تقف وراءها الحكومة الفرنسية، لعدة اعتبارات متعلقة في أغلبها بماضيها الاستعماري في الجزائر. ومن أهم الأرشيفات الفرنسية التي لها علاقة بتاريخ المقاومة نذكر ما يلي:

.d'Algérie Archives de l'Ancien Gouvernement Général
l'Etat-Major de lArmée Ch.de Archives Conservées au Service Historique de
.Vincennes:Séries H Algérie

.Archives Nationales Série F.80

زيادة على هذا ، هناك صحافة ما وراء البحار الموجودة بملحقة قصر فرساي، والتي تشمل كل الصحافة الصادرة في فرنسا ، والصحافة الصادرة في المستعمرات الفرنسية والتي منها الجزائر. أما النوع الثاني، فيشمل أرشيفات الدول المجاورة ، باعتبار أن أراضي هذه الأخيرة كانت في كثير من الأحيان الملاذ والامتداد الطبيعي والسند للمقاومة والمقاومين في كثير من الفترات التاريخية. ولهذا تزخر مكتبات وأرشيفات هذه الدول بكميات معتبرة من الوثائق ذات الصلة بأحداث الجنوب الجزائري، فمثلا لدراسة شخصية المقاوم الترقي وأمين كال طوارق الهوقار محمد بسيكا بن الحاج البكري المعروف بأهتيغال (1877- 1900). من الضروري الإطلاع على الأرشيف الفرنسي الموجود بالجماهيرية الليبية. باعتبار أن هذا الأخير كانت تربطه علاقات متينة بالسلطات التركية، وكان عل اتصال مستمر معها للتنسيق من أجل التحضير العسكري لمواجهة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية والليبية، وهذا ما تشير إليه رسائله لهذه السلطات، والتي أشار إليها الفرنسي:Bernard.M:Deuxième mission .Historique et Flaters rapport rédigés au service central des affaires indigènes .Alger A.Jourdan .P.P156-157.1882

لكن أهم ما يقال في هذا السياق عن الكتابات الفرنسية، أن أصحاب هذه الكتابات ليسوا من ذوي الاختصاص التاريخي، وإنما يمثلون فئات متعددة المشارب السياسية والاجتماعية.لهذا فإن

طبيعة لمعلومات الموجودة في كتاباتهم، تفتقد قواعد المنهجية العلمية المتعارف عليها. فقد جاءت أحكامها ومواقفها من قضايا التاريخ الجزائري بعيدة في كثير من الأحيان عن النزاهة والموضوعية فهي سجينة وحبيسة الأطر والمقولات والتصورات والمفاهيم التي عودتنا عليها المدرسة الفرنسية و التي تحكمت فيها النظرة الأفقية و الاستعلائية لكل ما هو جزائري.

فالجزائري في نظر أصحاب هذه الكتابات، إنسان همجي وبربري في سلوكه وتصرفاته. وليس سردي لهذه الملاحظات التقليل نمن القيمة التاريخية للمصادر الفرنسية، فلا يخفى على أحد غناها بالأخبار والأحداث القيمة للباحث، لكن بعد أن يغربلها ويدققها ثم ينتقي ما يراه قريبا من الحقيقة.

-المصادر المحلية:

لا تستكمل الدراسة التاريخية فقط بما كتبه الغير عن تاريخنا الوطني، لهذا فإن العودة إلى المصادر المحلية – و التي هي تعبير عن وجهة نظر الجزائريين من الأحداث التاريخية التي عايشوها إبان الحقبة الاستعمارية – ضرورة ملحة تحتمها الموضوعية العلمية التي ينشدها المؤرخ النزيه. إلا أن البعض من الجزائريين يستنكف من العودة لهذه المصادر في دراساته وأبحاثه و التي تبقى –دون هذه المصادر –مبتورة وغير صادقة في أحكامها واستنتاجاتها، وفي نفس الوقت صورة طبق الأصل لما ذهب إليه الأجانب في نظرتهم لهذا

التاريخ.

وتأتي المخطوطات على رأس هذه المصادر، وهي موزعة بين مكتبات الزوايا والكتاتيب ودور بعض العائلات الخاصة في مدن الجنوب. ورغم الوضعية السيئة التي تعانيها هذه المخطوطات من جراء الإهمال وعدم توفر مقاييس الصيانة و الحفظ من جانب المعنيين عليها، إلا أنها تتضمن معلومات قيمة ومهمة عن تاريخ الجنوب الجزائري وأحداثه. وثاني هذه المصادر الشهادات و الروايات الشفوية التي مازالت الذاكرة الشعبية ترويها للأجيال عن ملاحم وأحداث تاريخية بارزة عايشها الأجداد.وما على الباحث إلا البحث عن هذه الروايات والشهادات وجمعها ثم تنقيتها من الشوائب التي علقت بها من جراء عامل انتقال الرواية من شخص إلى آخر ثم ترتيبها حسب قرب أصحابها من الأحداث التاريخية. وهذا ما اعتمدناه في دراستنا عن ثورة الشيخ آمود، فقد استقينا أغلب المعلومات التاريخية والتي تخص مجريات ثورته ، من الرواية الشفوية، التي تفضل بها أحد الأشخاص الذين عايشوا الأحداث الأخيرة من هذه الثورة .ونحن مدينون له في توضيح عدة حقائق تاريخية لم نعثر عليها في المصادر والمراجع الفرنسية. ولو لا هذه الرواية لبقيت بعض الأحداث من تاريخ الطوارق في طي النسيان.

ولا ننهي هذه المداخلة، دون الإشارة إلى أهمية الدراسة الميدانية في التاريخ العسكري فزيارة مواقع وأمكنة الأحداث و الوقوف

عليها، مرحلة جد هامة للباحث للإلمام أكثر بظروف وحيثيات الأحداث التاريخية المراد دراستها. فمثلا، لا يمكن، دراسة تطور العمران العسكري في الجنوب الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وتتبع تطوراته دون الوقوف عن قرب على الأبراج والحصون والقلاع والمدن. وهنا تظهر حاجة الباحث المؤرخ إلى استعانة بالأبحاث الأثرية والهندسية والعمرانية والجغرافية والطبوغرافية، كعلوم مساعدة ومكملة، فاستخدام الرسومات والخرائط والمخططات والصور ضرورية لهذا النوع من الدراسات العسكرية.